الفصل السادس

ظهور السلاجقة الأتراك ومواصلة الصراع المذهبي

- نشأة السلاجقة واتجاههم المذهبي.
- موقف السلاجقة من الشافعية والأشعرية.
- السلطة السلجوقية والمعارضة.
- التصوف ودوره في الحياة السياسية والاجتماعية.

ننتقل الآن إلى مرحلة جديدة من مراحل الصراع المذهبي في خراسان ألا وهى مرحلة ظهور السلاجقة ودورهم في ازدياد حدة التعصب ومرحلة الجمود الفكري والعقلي، ففي هذا الفصل نتحدث عن ظهور دولة السلاجقة الأتراك واتجاههم المذهبي وموقف الخلافة العباسية من مساندتها، ومدى تعامل السلطة السلجوقية مع بقية المذاهب سواء سنية أو شيعة أو غير ذلك ثم طائفة المتصوفة، ومعرفة كل هذا أو هل ارتبط ذلك بخلفية اجتماعية وسياسية واقتصادية أم لا؟

نشأة السلاجقة واتجاههم المذهبي :

فترجع نشأتهم إلى أن أصلهم من الترك الخزر، وكانوا يخدمون مع ملوك الترك ونشأ جدهم سلجوق فقربه زعيم الترك واختص به ولقبه "سباشي" أي قائد الجيش، بالإضافة إلى أن أول من دخل الإسلام منهم الأمير "تقاق" وهو اسم مقدم السلاجقة وتقاق باللغة التركية القوس من الحديد[١].

وعندما صار سلجوق قائداً للأتراك الغز، نفر بهم من بلاد الترك إلى بلاد ما وراء النهر ؛ ليكون عوناً لآل سامان وحماية الأطراف وليمكنوه من المراعي والمساكن[٢].

وقد ذهب كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين إلى القول بأن السلاجقة نشئوا تحت ضغط سياسي واقتصادي بل وأيضاً نشأتهم مرتبطة بالناحية البيئية الجغرافية، مبررين ذلك أنهم سكنوا موضعاً من أعمال بخارى وهى "نور" لكثرة وجود المراعي والكلأ بهذه المنطقة، بل إنهم حاولوا العبور إلى خراسان ؛ لذلك رفض السلطان محمود الغزنوى بادئ الأمر خروجهم إلى خراسان[٣].

---

(١) صدر الدين الحسيني، زبدة التواريخ ، ص٢٣ – ٢٤ ؛ ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٦٠.

(٢) ابن الطقطقي، المصدر السابق، ص٢٦٠

(٣) الأصفهانى، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٥ ؛ صدر الدين الحسينى : المصدر السابق، ص٢٦ ؛ ابن الطقطقى : نفسه، ص٢٦٠ ؛ أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، ص٥٦ ؛

كما أنه لاشك في أن قيام دول تركية على الحدود الإسلامية الشرقية كالدولة القراخانية والدولة الغزنوية، قد ساعد هؤلاء الأتراك السلاجقة على عبور نهر جيجون والانتشار غربًا في أراضي الخلافة العباسية[١].

وبالفعل كان للسلاجقة دور في مساعدة السامانيين في حربهم ضد القراخانيين؛ من أجل الاستيلاء على مناطق رعوية وعشبية، أي أنهم كانوا بمثابة المرتزقة، فهذا له دلالة سياسية – جغرافية.

أما بخصوص اتجاههم المذهبي، فقد اتجه بالطبع السلاجقة إلى المذهب السني بسبب دخولهم في الإسلام ومجاورة الدويلات الأخرى بل وخدمتهم كالسامانية والغزنوية، وتعدوا ذلك فيما بعد بأن أطاحوا بالغزنويين من خراسان عام(٤٣١هـ/ ١٠٣٩م) عندما قويت شوكتهم ولم يستطع السلطان مسعود الغزنوى مقاومتهم وهزم في "دانداقان" التي تقع بين مرو وسرخس ودخل السلاجقة على إثرها خراسان وأعلنوا دولتهم[٢].

وهناك رأي قائل بتأثير عنصر البداوة والخشونة القبلية على تعصب السلاجقة للمذهب السنى[٣]، أما اتجاههم المذهبي السني فكان للحنفية ودلالة ذلك أن بعد دخولهم خراسان وإعلان دولتهم كانوا في احتياج لتدعيم نفوذهم وتكريس الاعتراف الرسمي بهم من قبل الخلافة العباسية، ومن ثم اتخذوا المذهب السني الحنفي وهو مذهب الخلافة العباسية[٤].

ولاسيما بعد دخولهم بغداد عام (٤٤٧هـ / ١٠٥٥م) وقضائهم على دولة البويهيين الشيعة، فاكتسبوا بذلك شرعية كبي ر ر ر ى ـ بمحاربة أعداء الخلافة وأشهر مثال هو قضاء "طغرل بك" أول سلطان

أحمد مختار العبادى : في التاريخ العباسي والفاطمي، ص١٨٠ ؛ بروكلمان : تاريخ الأدب العربي، ج٤، ص٢٧٢.

(١) أحمد مختار العبادى، المرجع السابق، ص١٨٠

(٢) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص١٥٧

(٣) الراوندي، المصدر السابق، ص١٦٠ ؛ أحمد شلبى : المرجع السابق، ص٦١

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص٢٥٣

سلجوقي على الفتنة التي قام بها "البساسيرى"(*) الذي أخذ يلقي خطبة الجمعة في مساجد بغداد باسم الخليفة الفاطمي، كما أنه سك العملة باسم الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وبالفعل التقى الطرفان في معركة طاحنة أسفرت عن مصرع البساسيرى عام (٤٥٠هـ/١٠٥٨هـ) (١).

الأمر الذى جعل أحد الباحثين(٢) يصف الأتراك السلاجقة بأنهم حراس الخلافة (BodyGuard) ، وأيضاً ذهب باحث آخر إلى القول بإقامة حلف بين الخليفة العباسي والسلطان التركي طغرل بك الذي مثل شريحتين هما الفقهاء المحليون والضباط الأتراك، وقامت الدولة السلجوقية على التعاون بين هاتين الشريحتين(٣).

وبناء على ذلك لم يكن للخلفاء العباسيين من الأمر سوى ذكر أسمائهم في الخطب، حيث إنهم عاشوا على إقطاعات خصصت لهم، بالإضافة إلى قضاء أوقاتهم في بناء القصور وترميمها، في ظل استئثار السلاجقة بالسلطة في بغداد كما فعل البويهيون من قبل، ولتقوية وزيادة تلك الأواصر حدثت مصاهرة حيث تزوج طغرلبك من ابنة الخليفة القائم بأمر الله العباسي (٤٢٢-٤٥٠هـ/١٠٣٠-١٠٥٨م) في عام (٤٤٨هـ - ١٠٥٦م) وكانت هذه المصاهرة لها دلالة سياسية واضحة(٤).

وأيضاً من مظاهر اتساع الصلة بين السلاجقة والخلافة العباسية

(*) البساسيرى : هو الحارث أرسلان البساسيرى (ت : ٤٥١هـ / ١٠٥٩م) – مقدم الأتراك ببغداد، يقال أنه كان مملوك بهاء الدولة بن بويه وهو الذى خرج على الخليفة القائم بأمر الله ببغداد، وخطب للخليفة المستنصر بالله الفاطمى على المنابر. (انظر: ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٣، ص٢٨٧).

(١) أحمد رمضان، الخلافة في الحضارة الإسلامية، ص٩١

(2) Philip Hitti, The near east in history, Canada.1961, P. 293

(٣) آي . آشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ص٢٧٣

(٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٨٧ ؛ فتحي أبو سيف : المصاهرات السياسية، ص١٢٢ ؛ مصطفى الرافعي : حضارة العرب، ط٣ دار الكتاب اللبناني ١٩٨١م، ص٢٦٥ – ٢٦٦ ؛ صلاح الدين الهادي : دراسة في شعر العصور العباسية، ط١ . دار الثقافة العربية – القاهرة ١٩٩٤م، ص٧

تمتع السلاطين السلاجقة بألقاب فخرية خاصة، ومن ذلك تلقب السلطان طغرل بك "ملك الشرق والغرب" على يد الخليفة العباسي القائم بأمر الله عام (٤٤٩هـ - ١٠٥٧م)[١].

وهناك أيضاً إشارة من أحد المصادر إلى تدخل السلطة السلجوقية في تعيين قاضي قضاة بغداد على المذهب السني الحنفي ففي عام (٤٤٧هـ - ١٠٥٥م) بعد وفاة القاضي "الحسين بن على بن ماكولا"[*] خاطب طغرل بك وزيره عميد الملك الكندرى – سيأتي ذكره فيما بعد – في تولية قاضي القضاة "أبى عبد الله محمد بن الدمغانى" وقال عنه عميد الملك هو قدوتنا بخراسان الموصوف بجميع الألسنة[٢].

موقف السلاجقة من الشافعية والأشعرية :

وبعدما بدأت الدولة السلجوقية في تكريس المذهب السني الحنفي كمذهب رسمي للدولة وتوطيد علاقتها مع الخلافة العباسية، بدأت مرحلة جديدة من الصراع المذهبي السني شبه الدائم بين الحنفية والشافعية، بل والجدير هذه المرة بين الحنفية والأشعرية، أي لقد اتخذت السلطة السلجوقية المتمثلة في السلطان طغرل بك (٤٣٣ - ٤٥٥هـ / ١٠٤١– ١٠٦٣م)، ووزيره "عميد الملك الكندرى" – الذي كان له دور رئيسي بل ويعتبر محور الأحداث في هذا الصراع – موقفاً من الشافعية والأشعرية.

وقد بدأ هذا الصراع حينما ذهب الوزير"أبو نصر منصور محمد

---

(٥) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ط . الدار الفنية – القاهرة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص٦٤

(*) أبو عبد الله بن ماكولا : هو أبو عبد الله بن ماكولا الحسين بن علي العجلي الجرباذقاني نسبة إلى جرباذقان بلد بين جرجان واستراباذ، تولى قضاء القضاة ببغداد عام (٤٢٠هـ - ١٠٢٩م) على المذهب الشافعي، ولد سنة ٣٦٨هـ، وتوفى عام ٤٤٧هـ (ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٣، ص٢٧٥).

(١) البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي، ط٣. دار الآفاق الجديدة – بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص١٣

الكندرى"[*]، إلى السلطان طغرل بك ووشى بمذهب الأشاعرة الشافعة وبالفعل تم لعنهم على المنابر بل واعتقال أئمتهم، وقد طال هذا الضرر خراسان والشام والحجاز والعراق، وتم القبض على " أبي القاسم القشيري"[*]، وإمام الحرمين "أبي المعالي الجوينى"[*] و"أبي سهل الموفق"[*] ونفيهم ومنعهم عن المحافل، فضلاً عن مصادرة أملاك وأموال أبي سهل[1].

وكان ذلك في عام (٤٤٥هـ / ١٠٥٣م)، ومن نتائج تلك الواقعة أن "أبا القاسم عبد الكريم القشيري" عمل رسالة سماها (شكاية أهل السنة من المحنة) اسعطف فيها السلطان السلجوقي طغرل بك، لكن رفض السلطان السلجوقي السماع له ولأتباع الأشعري وقال : الأشعرى عندي مبتدع يزيد على المعتزلة[2].

(*) عميد الملك : هو نصر منصور بن محمد الكندرى، ولد سنة ٤١٥هـ بنيسابور، وكان في بداية حياته حاجباً في الديوان وصعد في المراتب حتى أصبح وزيراً عينه طغرل بك حاكماً على خوارزم، وتم قتله على يد نظام الملك بمرو عام ٤٥٦هـ (انظر: عماد الدين الأصفهانى، خريدة القصر وجريدة العصر في ذكر فضلاء أهل خراسان وهرات، تحقيق : عدنان محمد، ط١ . طهران ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ص٦٢ ؛ البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق، ص٣١).

(*) أبو القاسم القشيرى : كان علامة في الفقه والتفسير والحديث وعلم التصوف، وأصله من أستوا من العرب الذين قدموا إلى خراسان، وصنف الكثير من الكتب ولد عام ٣٧٦هـ،(ت : ٤٦٥هـ) بنيسابور(انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج٢، ص٣٧٥)

(*) أبو المعالي الجويني : هو أبو المعالي عبد الملك ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي يعقوب يوسف الجويني الفقيه الشافعي الملقب ضياء الدين المعروف بإمام الحرمين، أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق المجمع على إمامته وقد لقب بإمام الحرمين بسبب أنه خرج إلى الحجاز وجاور بمكة ٤ سنين وبالمدينة يدرس ويفتى ويجمع طرق المذاهب ثم عاد إلى نيسابور في عهد السلطان آلب أرسلان ووزيره نظام الملك الذي بنى له المدرسة النظامية بنيسابور وفترة حياته (٤١٩ – ٤٧٨هـ) (انظر : ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص١٦٧).

(*) أبو سهل الموفق : ولد عام ٤٢٣هـ انتهت إليه زعامة الشافعية بنيسابور بعد وفاة أبيه ولقب بلقب أبيه جمال الإسلام، (ت : ٤٥٦هـ). (انظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ج٤، ص٢٠٨) .

(١) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج٣، ص٢٧٠-٢٧١ ؛ ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة،ج٥،ص٥٦؛ ابن الجوزي: المنتظم،ج١٥، ص٣٤٠

(٢) ابن الجوزي، المصدر السابق، ج١٥، ص٣٤٠

لكننا هنا أمام تساؤل هام ألا وهو ما السبب في رغبة الوزير عميد الملك الكندري في الهجوم على الشافعية والأشعرية بل لعنهم على المنابر ؟. فلنحاول الآن تفنيد بعض من آراء المؤرخين من أجل معرفة سبب تلك الفتنة.

في هذا الصدد يرجع "ابن خلكان"[1] (ت: ٦٨١هـ/١٢٨٢م) أن سبب الفتنة هو سبب مذهبي أو أنه لمجرد أن الوزير عميد الملك الكندرى وسلطانه طغرل بك متعصبان للمذهب الحنفي وبالتالي يجب القضاء على الشافعيين والأشاعرة.

أما "السبكي"[2] (ت: ٧٧١هـ/١٣٦٩م) فيرى أن المسألة ترجع إلى خلفية اجتماعية- سياسية، حيث إن الإمام أبا سهل الموفق وهو شافعي المذهب كان ممتلكاً للضياع وصاحب ثروة وهبات هائلة، وداره ملتقى للعلماء من الفريقين الحنفي والشافعي يتناظرون، أما من الناحية السياسية فالكندرى كره أن يثب ابن الموفق على منصب الوزارة ولاسيما أنه كان شخصية مرموقة وتنال كل الاحترام والتبجيل من المجتمع الخراساني.

بينما ذهب "بارتولد"[3] إلى القول بأن سبب الاضطهاد يرجع إلى أن الشافعية رتبوا علم الكلام بقصد الرد على الرافضة وفي هذا العلم تتخذ الأدلة العقلية أساساً للحكم على المسائل الدينية، كما أن لعلوم اليونان فيه منزلة عالية، وهذا كله في نظر السلاجقة من قبيل البدع الضارة المخلة بالتعاليم الدينية لأهل السنة.

وجاء رأي محمد محمدي[4] متوافقاً مع رأي بارتولد قائلاً بأن النظرية السلفية التقليدية هي التي سيطرت على العقول في عهد السلاجقة، مما أدى إلى تكريس النصية والاتجاه الغيبي.

---

(٣) وفيات الأعيان، ج٤، ص ٢٢٢ – ٢٢٣ ؛ عبد العزيز : آثار الشيعة امامية،ط١. تهران١٣٠٧هـ ش، جزء جهارم، ص٤٨

(٤) السبكى، طبقات الشافعية، ج٣، ص٣٩٠–٣٩١

(١) تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص١٠٨– ١٠٩

(٢) الأدب الفارسي (أهم أدواره وأشهر أعلامه)، ط٢ منشورات، طهران. ١٩٩٥م، ص١٥

وبعد تفنيد تلك الآراء، من الممكن القول بأن تفسير ابن خلكان يعتبر من الناحية الظاهرية الشكلية على أساس العصبية المذهبية كحنفية وشافعية، لاسيما أن ابن خلكان شافعي المذهب فبالطبع سيكون متحيزا لمذهبه، إلا أننا نرى نميل إلى رأي السبكي-الشافعي المذهب- الذي رد تلك الفتنة إلى الخلفية الاجتماعية السياسية ودلالة ذلك أنه صودرت أموال وضياع أبي سهل الموفق وبعد ذلك أفرج عنه، أي أن ظهور شريحة من كبار الملاك الفقهاء هو الذي أغرى السلطة السلجوقية، فضلاً عن السبب السياسي وهو خوف الكندري من منافسة ابن الموفق على منصب الوزارة أو الوثوب عليه.

وأيضاً لا نستطيع إهمال آراء بارتولد ومحمدي إلا أننا نعتبر آراءهم نتيجة للسبب السابق ؛ نظراً لأن الفكر السلفي التقليدي الذي يؤول إلى النصية ويكرس الاتجاه الغيبي لن ينمو إلا في ظل مجتمع إقطاعي يفرز تلك الأفكار.

لكننا نرى أنه لا بد من التفرقة بين الشافعية كمذهب من مذاهب السنة الأربعة والأشعرية وهم أتباع أبى الحسن الأشعري كتابعين للمذهب الشافعي، حيث إننا نرى أن الأشعرية كمذهب فكري جاء بعد المذهب الأم (الشافعي) لمحاربة المعتزلة ؛ لذلك فقد جاءوا بفكر منغلق غير منظور لم يعمل العقل بل كرس فكرة القدر والتواكل ويعتبر هو مذهب الخلافة العباسية ومذهب السلطات الإقطاعية من الناحية الضمنية، و نعني بذلك أن الخلافة والدويلات السنية في المشرق من الناحية الإسمية والرسمية على المذهب الحنفي، لكن أفعالهم وتكريسهم للظلم الواقع يعكس مدى اتخاذهم للمذهب الأشعري الذي أصبح مذهباً سلطوياً .

أما عن قول السبكي[1] فيما فعله الوزير الكندري في اتخاذه طائفة من المعتزلة الذين زعموا أنهم يقلدون مذهب أبـ [illegible] بالمذهب الحنفي سياجاً عليهم أو كستار لاعتزالهم.

فإننا نستشف من هذا النص شيئين،الأول: كيف يأتي عميد الملك

(١) طبقات الشافعية، ج٤، ص٣٩١

الكندري-السني المذهب- بالمعتزلة وهم أشد أعداء الخلافة العباسية والسلاجقة في نفس الوقت ؟، فهذا سنجيب عنه تفصيلاً في النقطة القادمة. أما الشيء الثاني وهو علاقة المذهب المعتزلي بالأحناف أو المذهب الحنفي . فالعلاقة بين المعتزلة والمذهب الحنفي نظن أنها علاقة أو صلة لها خلفية اجتماعية حيث إن زعماء المعتزلة معظمهم تجار وكانوا أحنافاً، مما يدل على أن مذهب الإمام أبي حنيفة اكتسب صبغة بورجوازية في الأحكام التشريعية[1].

لكن لم ينتهِ الأمر عند هذا الحد بل تواصل الصراع بين الحنفية والشافعية على صورة المناظرات العلمية التي انتشرت كنتيجة لكثرة المدارس التي شيدت للمذاهب الأربعة، وكان علماء هذه المذاهب يدخلون بين بعضهم البعض في مناظرات شديدة قد تصل إلى حد حدوث الفتن والاضطرابات، فعلى الرغم من أن هذه المناظرات كانت تتناول موضوعات متعددة من النحو والصرف واللغة، لكن أكثر ما كان يؤدي منها إلى التخريب والفتن هي المناظرات التي تدور حول الفقه والمسائل الدينية، وأيضاً وُجِد سبب آخر لتشجيع السلاجقة على انتشار المناظرات العلمية هو اتخاذها وسيلة هامة من الوسائل المنظمة والفعالة للرد على معتنقي المذهب الشيعي[2].

إلا أن الحال لم يستمر هكذا نظراً لأنه بعد موت السلطان طغرل بك ومجئ السلطان "عضد الدولة ألب أرسلان" (٤٥٥- ٤٨٥هـ / ١٠٦٣ – ١٠٩٢م) استوزر رجلاً داهية في عالم السياسة يدعى نظام الملك الذي انتصر للشافعية واتخذه مذهباً رسمياً للدولة وكرس الأشعرية منهجاً وبنى ما

---

(٢) محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج١، ص١٧٠

(١)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة ٤٠٨هـ؛ منى محمد بدر، أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية، ط١ مكتبة زهراء الشرق – القاهرة، ٢٠٠٢م، ج١، ص١٣٥ – ١٣٦ ؛ عبد النعيم حسنين : إيران والعراق في العصر السلجوقي، ص١٧١

سمى بالمدارس النظامية عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م)[١].

ولا غرو في أن أحد الباحثين قد اعتبر أن تأسيس تلك المدارس ظهور للأشاعرة، ولاسيما بعد أن تولي التدريس بها الإمام أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ/١١١١م)[٢].

وفي النهاية يمكن القول بأن المتغيرات الاجتماعية التي أبرزت فئات من التجار الأغنياء (الطبقة البورجوازية) على حساب فئات النبلاء ودهاقي الأرض القدامى في خراسان، كان لها الدور الأساسي في إنشاء المدارس التي تعد جزءاً من محاولتهم الحصول على اعتراف بهم وبمكانتهم الاجتماعية[٣].

السلطة السلجوقية والمعارضة:

لم يختلف الأمر كثيراً في عهد السلاجقة فهم على درب السامانيين والغزنويين، حيث سعوا للقضاء على كل ما هو معارض للسلطة السلجوقية خصوصاً الشيعة والمعتزلة العدوين اللدودين لأي سلطة سنية، ولاسيما أن ضراوة النظام السلجوقي في القمع بمساعدة فقهاء السلطة سهلت الكثير في محاربتهم للشيعة والمعتزلة.

ويحدثنا ابن كثير[٤] عن ما فعله السلطان طغرل بك في عام(٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) عندما حرق دار العلم التي أنشأها الوزير "سابور بن اردشير" وزير الدولة البويهية، والتي كانت تحوى الكثير من الكتب والمخطوطات الفكرية، ولكن بما أنها صرح شيعي زيدي، فكان لابد من القضاء عليها .

لكن لم يستطع السلاجقة القضاء على الشيعة قضاءً مبرماً ؛ وذلك لأن الشيعة الإسماعيلية تمارس نشاطاً ليس بالقليل بل نشاطاً كبيراً يصل إلى حد

---

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٣٠ ؛ ابن اسفنديار، تاريخ طبرستان، ص١٨٠ ؛ بطروشوفسكي:الإسلام في إيران، ص١٥٤

(3) Tamara Talbot rice, The seljuks in asia minor, landon. 1961, P21 .

(٤) رضوان السيد، الأسد والغواص (حكاية رمزية عربية من القرن الخامس الهجري)، ص١٨.

(١) البداية والنهاية، ج١٢، ص١٨

التهديد للسلطة السلجوقية ولاسيما في خراسان[1]، فضلاً عن أن نشاطها استمر طوال القرنين الخامس والسادس الهجريين، إذ تعهدها دعاه مختلفون وكان يؤيدهم تأييداً قوياً الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ – ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ – ١٠٩٤م) وقد ظل الرئيس الأعلى للإسماعيلية طوال ستين عاماً، ومن ضمن الدعاة الذين بثهم الخليفة المستنصر بالله الرحالة "ناصر خسرو" (ت : ٤٨١هـ / ١٠٨٨م) الذي لقبه أتباعه بحجة خراسان[2]، فلم يلبث ناصر أن اتصل ببعض رؤساء الشيعة الإسماعيلية في مصر وبدأ جمع الدعاة لتقوية الدعوة في خراسان إلا أن السلاجقة لاحظوا خطر دعوة ناصر خسرو، فتم تضييق الخناق عليه واضطروه إلى الفرار إلى بلاد ما وراء النهر[3].

وكان هناك أيضاً داعٍ خطير هو "أحمد بن عبد الملك بن العطاش" الذي نهض بالدعوة في أصفهان – التي كانت العاصمة الثانية للسلاجقة – وقد استولى على حصن منبع بجانب أصفهان يسمى "شاه دز" جعله وكراً لأتباعه ودعوته[4].

ليس هذا فحسب بل اضطهدت السلطة السلجوقية المعتزلة لأن المعتزلة من أكثر الفرق المتكلمة انتشاراً بين الشيعة ويرتبط نشاطهم بمدى نجاح نشاط الشيعة، وبالفعل بفعل ضراوة النظام العسكري السلجوقي، قد تراجع نشاط المعتزلة بل وضعف بدءاً من القرن الخامس الهجري[5].

ومن الممكن القول أيضا أن من الأسباب التي أدت إلى ضعف نشاط المعتزلة هو ظهور "أبي حامد الغزالي" وجهوده في تدريس المذهب

---

(٢) بارتولد، المرجع السابق، ص١١٨

(٣) شوقي ضيف، عصر الدولة والإمارات، ج٤، ص٥١١

(٤) زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ط ١. دار المعارف – مصر ١٩٤٥م، ص٥٧

(٥) شوقي ضيف، المرجع السابق، نفس الجزء، نفس الصفحة.

(١) رسول جعفريان، تاريخ تشيع در إيران (از آغاز تا قرن دهم هجري)، ط. قم . ١٣٧٥ هـ - ش، جلد أول، ص ٣٧٩

الأشعري في المدارس النظامية التي قد أنشأها نظام الملك، وكانت تعمل على ترويج الفكر الأشعري لمواجهة فكر المعتزلة وأيضاً الشيعة[1].

التصوف ودوره في الحياة السياسية والاجتماعية:

فالتصوف والمتصوفون لم يختلف حالهم في عهد السلاجقة عن عصور سابقة من تأييد السلطة وإطلاق يدهم في الحياة الاجتماعية بين الناس سواء في العصر السامانى أو الغزنوي، لكن الجديد في العصر السلجوقي أن التصوف أخذ مكانه أكبر في الدولة بل أصبح عنصراً مؤثراً في سياسة السلطة السلجوقية واكتسب دوراً سياسياً بجانب الدور الاجتماعي، مما أدى إلى صعود منحنى الصوفية إلى الأعلى في عهد السلاجقة.

بداية لا ننكر أن الفترة من النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الهجري قد شهدت انتشار فكر التصوف وتعدد مدارسه[2].

ولا يمكن تفسير انتشار التصوف أو تعدد مدارسه أو تطور فكره بعيداً عن الواقع السياسي وخصوصاً بعد تكريس الإقطاع العسكري التركي المتمثل في السلطة السلجوقية، وأيضاً الصراعات المذهبية التي نتجت عن اضطراب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ولاسيما أن عصر السلاجقة يعتبر عصر النزاعات المذهبية بين الفرق المختلفة سواء سنية أو شيعية، ورأينا كيف كان الصراع على أشده بين الحنفية والشافعية أو الأشعرية، فلم يخطئ أحد الباحثين حين وصف هذا العصر بالجفاف الفلسفي والعقلي وتكريس النصية والاتجاه الغيبي[3].

ولقد أقحمت السلطة السياسية المتمثلة في السلطان طغرل بك التصوف

---

(٢) عبد النعيم حسنين، إيران والعراق في العصر السلجوقي، ص١٥٣

(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين،ج١، ص٨١ ؛ فتحي أبو سيف: الماوردي (عصره وفكره السياسي)، ط١ القاهرة ١٩٩٠، ص٥٠

(١) قاسم غني، تاريخ تصوف در اسلام، ط. طهران ١٣٢٢ هـ . ش، جلد دوم، ص٤٦٥

لخدمة أغراضها وذلك عن طريق التقرب لرموز وشيوخ التصوف المعروفين آنذاك، ويذكر الراوندى[1] أنه عندما أقبل السلطان طغرل بك إلى مدينة همدان كان بها ثلاثة من الأولياء هم "بابا طاهر"[*] و"بابا جعفر" "الشيخ حمشاد" حيث كانوا واقفين على جبل هناك على باب همدان يعرف باسم الخضر فلما وقع نظر السلطان عليهم أتاهم هو ووزيره وقبل أيديهم.

ومن مظاهر تبجيل السلاجقة لرموز الصوفية أيضاً أنه عندما جاء الأخوان طغرل بك وجغرى بك لزيارة الشيخ أبى سعيد الميهنى حيث كان جالساً مع جماعة من الصوفيين في روضته وتقدما إلى منبره وسلما عليه وقبلا يده ووقفا بين يديه، وقال الشيخ لجغرى : لقد منحناك ملك خراسان ومنحنا طغرل ملك العراق[2].

ومن ناحية أخرى يجدر بنا أن نشير إلى تطور فكر التصوف في هذه المرحلة التي نحن بصددها، هذا التطور الذي ألقى بظلاله على فكر المتصوفة سياسياً أو اجتماعياً، هذا التغير الذي بدت ملامحه منذ أواخر القرن الثالث الهجري، ويعزى هذا التغير بالأساس إلى تفاقم الصراع بين البورجوازية والإقطاع والانفتاح على فكر الأوائل وإفادة الأحزاب السياسية منه في التنظير لأيديولوجيتها، فانعكس ذلك على التصوف الذي عبر عنه في هذه المرحلة "الجنيد البغدادى"[*] و "ذو النون المصري"[*] و"الحلاج".

---

(٢) راحة الصدور وآية السرور، ص١٦٠

(٣) محمد بن المنور بن أبي سعيد بن أبى الخير الميهنى، أسرار التوحيد في مقاومات الشيخ أبى سعيد، ص١٨٢

(*) بابا طاهر : هو أحد رموز التصرف في عهد السلاجقة حيث أعلن تعاليمه في المقام الأول في رباعيته المنظومة بلهجة فارسية (ت : ٤٤٧هـ). (انظر: كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج ٧، ص٣٢٩) .

(*) الجنيد البغدادي : هو أبو القاسم الخزار ويقال له القواريري، أصله من نهاوند ولد ببغداد و نشأ بها وسمع الحديث من الحسين بن عرفة وتفقه بأبي ثور إبراهيم، وكان يفتي بحضرته وعمره ٢٠ سنة، واشتهر بصحبة الحارث المحاسبي وخاله السري السقطي، لازم التعبد وتكلم على طريقة

أي أن التغير هو الصبغة الفلسفية للتصوف والتي جعلتهم يتخذون التأويل طريقاً لهم للوصول إلى أغراضهم مثلما فعلت كثير من الفرق في آيات القرآن، وكان سبيلهم إلى ذلك فيما عبروا عنه بالارتياض أو مجاهدة النفس، وكان الوصول إلى الاتحاد بالحضرة الإلهية أو الفناء في الله، وهو ما عبروا عنه بالوصول إلى الحقيقة وأقصى ما يصبوا إليه الصوفي حيث يكون بذلك قد وصل إلى ما يعرف بالتجلي أو الكشف[١].

بحيث يمكن القول أن هناك تقارباً بين فكرة التصوف وبين أفكار الشيعة الإسماعيلية المصطبغة بأفكار الفلسفة اليونانية سواء في فكرة التأويل الباطني أو الحلول.

وهذا أثر بلا شك في علاقة المتصوفين بالسلطة والعامة، إذ وجدت صور لشيوخ التصوف برفقة السلاطين وأخرى بين العامة بما يرمز إلى نزعة المساواة في أحلى صورها[٢]

لعل هذا يفسر تحول فكر ودعوة المتصوفة من التنويرى الثوري- كما فعل الحلاج- إلى التعايش السلمي في ظل سلطة الدولة سواء تعايش مع سنة أو شيعة أو الفقهاء، وهذا ما حدث بالفعل في عهد السلاجقة . وفي هذا الصدد يذكر الكلاباذى[٣] (ت:٣٨٠هـ/٩٩٠م) البعد الاجتماعي في التصوف ويصف بأنهم كانوا غرباء فقراء مهاجرين أخرجوا من ديارهم وأموالهم.

ويواصل أيضاً الكلاباذى[٤] حديثه عن علاقتهم بالفقهاء قائلاً إنهم يأخذون لأنفسهم بالأحوط والأوثق فيما اختلف فيه الفقهاء، وهم مع إجماع

الصوفية ت : ٢٩٨هـ/٩١٠م (انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٩٥) .

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٤، ص٢٢٦

(٢) محمود إسماعيل، آراء ورؤى في الفكر والتاريخ والفن والأدب ، ص٢٨

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق : عبدالحليم محمود وطه عبدالباقى سرور، ط عيسى البابى الحلبي . دار إحياء الكتب العربية ١٣٨٠هـ /١٩٦٠م، ص٢٢

(٤) المصدر السابق، ص ٨٤ ؛ هاملتون جب : إسلام بر رسي تاريخي، ترجمة : منوجهراميري، ط تهران، ص١٥٢

الفريقين فيما أمكن، ويرون اختلاف الفقهاء صواباً ولا يعترض الواحد منهم على الآخر، وكل من اعتقد مذهباً في الشرع وضح ذلك عنده بما يصح مثله مما يدل عليه الكتاب والسنة وكان من أهل الاستنباط فهو مصب باعتقاده ذلك، ومن لم يكن من أهل الاجتهاد أخذ يقول من أفتاه ممن سبق إلى قلبه من الفقهاء أنه أعلم وقوله حجة له.

ونستشف من كلام الكلاباذى هذا دلالة سياسية على أن الصوفية نأت بنفسها عن الجدل والكلام حول السياسة ومهاجمة السلطة وانشغلت بالزهد والتنسك والدعوة إلى الله، مما جعل السلطة السلجوقية تحتضن رموزهم وشيوخهم بل وتستخدمهم كسلاح في وجه المعارضين من الشيعة والمعتزلة.

ونأتي الآن إلى نقطة هامة ألا وهي امتزاج المذهب الأشعري بالصوفية، حيث كان من البديهي أن يفرز نمط الإقطاع السائد أبنيته الفكرية، ومعلوم أن الاتجاه النصي الأثري يمثل الغطاء الفكري للإقطاعية، وهذا يفسر إحياء مذهب الأشعري الممزوج بالصوفية ليصبح حجر الزاوية في أيديولوجيات النظام العسكري السلجوقي، وبالتبعية يفسر إخفاق وإحباط التيارات الفلسفية العقلية[1]، ولاسيما أن المذهب الرسمي للسلاجقة بعد مجيء نظام الملك هو المذهب الأشعري .

ومن أهم الأئمة والشيوخ التي مثلت التصوف في عصر السلاجقة الإمام القشيرى الذي درس في النظامية ودخل في مشاحنة كبيرة مع الحنابلة بسبب فكرة التجسيم[2]، والسيد "عبد الله الأنصاري" (ت: ٤٨١هـ/١٠٨٨م) وهو متصوف حنبلي وأيضاً الشيخ "أبو الحسن الخرقاني" وهو عارف شطاح و "أبو سعيد ابن أبى الخير" و "الإمام الغزالي"[3].

وبناء عليه تبنت بالطبع السلطة السلجوقية هذه الطائفة وفرضت على

---

(١) محمود إسماعيل، فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية، ط١ . مكتبة مدبولي- القاهرة ١٩٨٨م، ص٧٩

(٢) الإسنوي، طبقات الشافعية، ج٢، ص٣٠٣

(٣) قاسم غني، المرجع السابق، جلد دوم، ص٤٦٥-٤٦٦

المعماريين بأن ينشئوا لهم عمائر خاصة[1]، ومما يلاحظ في العمائر الدينية السلجوقية أنها لم تكن مقصورة في أغلب الأحيان على المساجد فحسب، بل كثر بناء الأضرحة ولا غرو فقد أقبلوا على تعظيم أولياء الله والعناية بذكراهم وكانت أضرحة الأولياء والصالحين أبنية مربعة وذات قبة مما يكسبها طابعاً دينياً[2]، فضلاً عن بناء الزوايا والأربطة والخانقاوات ووقف الأوقاف عليها للمتصوفة [3]، وقد أثر كل هذا من ناحية أخرى على أدب الصوفية لاسيما في القرن الخامس الهجري بظهور نمط جديد من الشعر الصوفي[4].

وفي رأينا أن السلطة السلجوقية افتقدت إلى التأييد الجماهيري والشعبي، ومن ثم ذهبت إلى الإنفاق ببذخ على المنشآت والعمائر الدينية لكي تظهر بصورة الحماة للدين ورعاية التصوف والمتصوفين، وأيضاً سلاح يحارب به المعارضين، ولاسيما أن السلاجقة بطبيعتهم كأتراك بدو عقليتهم لا ترقى للمجادلة والدخول في التفلسف والنظر في القضايا العقلية، فتركت هذه المهمة لفقهاء السنة والصوفية، ولأدواتها العسكرية والقمع من ناحية أخرى.

وقصارى القول أن ظهور قوة السلاجقة في المشرق الإسلامي كان يعتبر فصلاً جديداً من فصول الصراع المذهبي والفكري بل ويعتبر أشد النظم ضراوة في قمع معارضيها ؛ لذا في رأينا نستطيع أن نقول أن العصر السلجوقي هو عصر القمع الفكري وسيطرة السلطان ووزيره على مقاليد الأمور من خلال أدوات مثل الفقهاء السنية بجانب الصوفيه التي سخلت حجر زاوية في صراع السلطة ضد معارضيها.

---

(٤) منى بدر، المرجع السابق، ج١، ص٤٨

(١) زكي محمد حسن، الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي، ط٢ . القاهرة ١٩٤٦م، ص٢٠،٥٠ ؛ صادق نشأت و مصطفى حجازي : صفحات عن إيران، ط١ . الأنجلو المصرية ١٩٦٠م، ص٢٥٥ ؛ مجلة الدراسات الشرقية : دورية نصف سنوية، العدد ٢٣ يوليو ١٩٩٩م، ص١١٣

(٢) منى بدر، المرجع السابق، ص١٢١

(٣) سعيد السيد الباجوري، الشعر التعليمي في الأدب الفارسي في عصري الغزنويين والسلاجقة، ط١ . القاهرة ١٩٨٧م، ص٢١.